الباب الثاني

الأرضون السبع

يقول الله عز وجل في الآية الأخيرة من سورة الطلاق: (الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً).

حار المفسرون والعلماء في تفسير الأرضين السبع، وطغت الخرافة على العلم في هذه الناحية.

حسنا فلنرى ما بين أيدينا من أدله:

يقول الله ومن الأرض مثلهن أي خلق من جنس الأرض مثلما خلق من جنس السبع سماوات ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: (يتنزل الأمر بينهن).

هل يقصد من كبير إلى أصغر؟ فلو كان كذلك ووضعنا المثال السابق على تنظيم السماوات السبع، ونزلنا بالمقياس في الحجم يتضح أنه لو اعتبرنا أرضنا هي الأرض الأولى فيجب أن تكون أكبر بكثير جدًّا جدًّا من الأرض الثانية، بل وتحتوي على عدد كبير جدًّا من تلك الثانية، إذًا أين هي تلك الأرض الثانية؟

تبعًا للمثال السابق فإن أفضل الفروض تكون هي الذرة (وكيف لا ننتبه للتماثل الذي يصل إلى درجة التطابق بين شكل وتنظيم المجموعة الشمسية وشكل وبنية الذرة)، ثم الإلكترون كأرض ثالثة (حيث تحتوي كل ذرة على العديد منه وهو يدور في مداره حول النواة فيتَّسق ذلك مثل تنظيم السماوات).

ومن المعلوم الآن أن الإلكترون مكوّن من جسيمات أدق منه كأرض رابعة، وعلى هذا النسق أرض خامسة وسادسة ثم أرض سابعة وهي اللبنات الصغرى التي تتكون منها كل الجسيمات والأجسام.

ومن النظريات الآن ما تتكلم عن هذه اللبنات ولكن لتمسكي بأني لن أعتمد على نظريات لم تثبت صحتها بشكل قطعي سأكتفي بالإشارة إلى أن كل هذه الجسيمات تتكون مما هو أصغر.

فكما أن السماوات ضخامتها تفوق التصور لم لا تكون دقة الأرضين تفوق التصور "تبارك الله أحسن الخالقين". ونراجع الآية المشيرة لوجود الأرضين السبع: " لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا". على كل شيء قدير، على الضخم الذي لا يتصوره عقل وعلى الدقيق الذي لا يتصوره عقل.

فنحن نعتبر الآن أن دقة المصنوع إنما يعبر عن عظمة الصانع فتصوّرنا لتلك الدقة المذهلة إنما يزيد من تواضعنا أمام الخالق القادر.

طبعًا أنا لا أقطع بذلك التفسير وأدَّعي أنه الحقيقة المطلقة، ولكنى أراه أكثر منطقية وتعظيمًا لقدرة الله في الخلق من تفسير طبقات الأرض السبع ويتماشى مع ما نراه من عظمة خلق السماء وإشارة الله أن الأرض مثلها، بل وقال إن الأمر يتنزل بين كل واحدة وأخرى جميعًا (السماوات والأرضين) كما أنه يحقق وحدة تنظيم خلق السماوات والأرض من أنظمة متكررة منتشرة في كل أرجاء الكون.

وهذا التفسير لحقيقة الأرضين السبع قد يُفسِّر الاختلاف في النظريات والقوانين التي تحكم عالم السماوات (نظرية النسبية التي تفسر وبدقة حركة الأجرام السماوية) عن تلك التي تحكم عالم الأرضين (نظرية الكم والتي تختص بدراسة الجسيمات ما دون الذرية).

كما أن هذا التصور الجديد للأراضي السبع يزيل التعارض الظاهري بين حقائق القرآن وبين الراجح من النظريات العلمية الحاليّة في مسألةِ أيهما أسبق خلق الأرض أم خلق السماء.

فالله يقول في سورة فصلت الآيات:٧-١٢ (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ* ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ* فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ).

كما يقول في سورة البقرة الآية ٢٩ (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

فالله في هذه الآيات يشير إلى أنه قام بخلق الأرض قبل خلقه للسماء (وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين السابقين والمتأخرين) لأن لفظة "ثم" تفيد الترتيب، وحينما يعارض هؤلاء المفسرون مَن يتحدث باسم العلم يجيبونه بصلابة المؤمن أن الله أدرى بما خلق وطالما أنه قال بخلق الأرض أولًا فقد فعل، ويومًا ما سوف يبرهن العلم على خلق الأرض قبل السماء.

غير أن هذه الإجابة لا تُقنِع المتشكِّك الذي يقدم العلم على صحيح النقل، وكذلك لا تقنع غير المسلمين لأنها تخالف النظريات العلمية السائدة والمشاهدات الفلكية التي ترجح أن

عمر الأرض والنظام الشمسي كله بحوالي ٤,٥ مليار سنة بينما عمر الكون (السماء) يقدر بنحو ١٣,٥ مليار سنة، ومن ثَمَّ فعلميًا خلق السماء يسبق خلق الأرض.

ومن المفيد هنا أن نذكر أن النظريات العلمية تشير إلى أن بداية الكون كانت عبارة عن جسم كثيف جدًّا وخالٍ تمامًا من أي فراغ، انفجر لحظة الانفجار العظيم، واستمر بالتوسع حتى يومنا الحالي.

فكيف تُزيل الرؤية الجديدة هذا الإشكال؟

أولًا في الموضعين السابقين (من سورة فصلت وسورة البقرة) خص الله الأرض فقط بلفظ الخلق، بينما أشار إلى السماء بلفظ التسوية فلو اعتبرنا أن ما أشار الله إليه بقوله "خلق الأرض في يومين" في الآيات السابقة لم يقصد به خلق كوكب الأرض إنما المقصود هو خلق اللبنات الأولى للمادة من العدم فمثلت ذلك الجسم الكثيف جدًّا "المشار إليه في النظريات العلمية" بأحادية ما قبل الانفجار العظيم وهذه المادة بحسب ما شرحناه في هذا الباب إنما هي "الأرض السابعة" والتي سوف يتم تشكيلها و"تسويتها" بعد الخلق الأول بأنماط مختلفة لتبني كل المواد المعروفة في الكون من إلكترونات وذرات وكواكب ونجوم ومجرات وخلافه، وعلى هذا يكون الخلق الأول إنما كان لجنس من أجناس الأرض السبعة، ومن

هنا يزول التعارض بين القرآن والعلم حيث يسبق خلق الأرض السابعة خلق السماء وتسويتها.

و يؤيد ذلك قول الله في الآية ٣٠ من سورة الأنبياء (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ).

يقول الطبري: رتقًا؛ أي: لا ثقوب فيها، وبمقاييس الله أي لا فراغ فيها مطلقًا؛ (أي مادة أولية متراصَّة وملتصقة ببعض لا أنماط لها لأن الأنماط تستلزم وجود فراغات ولو ضئيلة) وهذه إشارة من الله أن السماوات والأرض كانتا ملتصقتين في جسم ليس به فراغات ثم بعد ذلك انفصلوا، هل المطلوب أن يذكر القرآن لفظ الانفجار العظيم كي يزول التعارض!!؟

قد يسأل البعض ويقول إن لفظ الأرض في القرآن دائمًا ما يشير إلى الأرض التي نحيا عليها "أي كوكب الأرض" فلماذا أريد أن أشير إلى لفظ الأرض هنا بالأرض السابعة أو اللبنات الأولى للمادة؟ وأجيب، أن الأرضين ما دون أرضنا إنما كانت غيبًا عن البشر في صدر الإسلام، فلم نعلم بوجود الذرات قبل منتصف القرن التاسع عشر، وبدأنا هذه الأيام في معرفة أن الجسيمات ما دون الذرية تتكون من مكونات أصغر وأصغر، لكن وبالمثل في عصر المسلمين الأوائل لم يتوصَّل أحد إلى نظرية الانفجار العظيم فلم يكن هناك

تعارض بين العلم والقرآن. فلم يكن ممكنًا ولم تكن هناك حاجة إلى التصريح بوجود تلك اللبنات فاكتفى الله بالإشارة إلى تعدد الأرضين واكتفى بالإشارة لأن السماء والأرض كانت ملتصقة.

ومن آيات الله أن تتزامن الاكتشافات العلمية، بحيث إذا أظهر كشف جديد تعارض بين العلم والقرآن سخر الله من يقوم باكتشاف آخر لا ليمحو ذلك التعارض فقط بل ليؤكد أن القرآن وحي صافٍ من خالق الكون ولايمكن أن يكون تأليف بشر مهما بلغ.

أما عندما يأتي الله لذكر الأرض "كوكب الأرض" التي نحيا عليها يقول في سورة النازعات الآيات من ٢٧ وحتى ٣١ (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا* رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا* وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا* وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا)

فبالنسبة لكوكب الأرض (أو الأرض الأولى) لم يقل خلقها بل قال إنه دحاها (جعلها كروية أو جعلها قابلة للحرث والحياة) وذلك بعد الانتهاء من بناء وتنظيم السماء ومن مواد مجودة وليست من العدم.

وهكذا يزول الإشكال ما بين القرآن والمشاهدات العلمية، بل ويكون القرآن سباقًا من ناحية تفصيله للخلق الأول في آيات سورتي البقرة وفصلت وكذلك لشرحه لتوقيت وكيفية نشأة كوكب الأرض بعد الانتهاء التام من بناء وتسوية السماء كما في سورة النازعات.

ومن جديد يحاول المشكِّكون إظهارَ تعارضٍ آخرَ في هذه الآيات ويدَّعون أن القرآن يناقض نفسه حينما يجمعون الفترات الزمنية في سورة فُصِّلت لتصبح ثمانية أيام بينما القرآن نفسه يقول في أكثر من موضع إن خلق السموات والأرض إنما كان في ستة أيام فقط.

و يرد على هذه الشبهة المفسرون المسلمون بأن الأربعة أيام التي جعل الله فيها الرواسي وقدَّر فيها أقوات الأرض إنما تشمل اليومين الأولين للخلق. كالمسافر من القاهرة إلى الإسكندرية يقول وصلت طنطا في ساعتين ووصلت الإسكندرية في أربع ساعات وهو يعنى أنه سافر من القاهرة إلى الإسكندرية في أربع ساعات فقط وليس في ست ساعات كما لو جمعت الفترات الزمنية.

ومع اقتناعي بصحة هذا التفسير لكن الرؤية الجديدة تفتح بابًا آخر للرد على هذه المسألة بأن الخلق من العدم إنما كان للأرض فقط في ستة أيام يومين لخلق الجسيمات الأولية (الأرض السابعة) وأربعة أيام لوضع القوانين التي تحكم تصرف تلك الجسيمات. ولا يحتسب تسوية السماء لأنه لم يذكرها بلفظ الخلق وإنما بالتسوية، والله أعلم بمراده ومقصده.
وبخلاف ذلك فإن هذه الرؤية الجديدة عن الأرضين السبع سوف تساعد في تفسير بعض الأمور الأخرى والأحاديث النبوية كما سيأتي بيانه في موضعه.